الفصل الثالث

مجال التوكل ومتعلقه

ومجال التوكل واسع ، ومتعلقه شامل لكل ما يطلبه الخلق ويحرصون عليه ، من أُمور الدنيا ، ومطالب الدين .

● التوكل فى أمر الرزق :

ولكن كثيراً من الناس إذا ذكر « التوكل » لم يخطر فى بالهم إلا « الرزق » فهو يتوكل على الله فى أمر الرزق الذى ضمنه لعباده . كما ضمنه لكل دابة فى الأرض : ﴿ وَمَا من دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ (١) .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

وإذا دعى إلى الإنفاق أنفق وهو مطمئن إلى أنّ الله سيرزقه خيراً مما أنفق ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣) .

وحين تحدث الإمام الغزالى فى كتابه « منهاج العابدين » عن « العوارض » التى تعرض لسالك الطريق إلى الله ، جعل فى مقدمتها « الرزق » ووصف العلاج لها فى « التوكل » .

ولا ريب أن أمر الرزق قد أهم الناس وشغلهم ، كما شغلهم أمر الأجل ، بَيْد أن المتوكلين على الله قد فرغوا من هذين الأمرين ، فقد اطمأنوا إلى أن الرزق مقسوم ، والأجل معلوم ، فلا يملك أحد أن ينقص من رزقهم مثقال حبَّة ، ولا أن يُقدِّم أجلهم مقدار لحظة .

وهذا لا يعنى أن يهمل السعى لرزقه ، بل يسعى ويكدح ، وهو مطمئن أن أحداً لا يأكل رزقه ، كما لا يأكل هو رزق غيره ، وأن ما أصابه من رزق لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

---

(١) هود : ٦ (٢) العنكبوت : ٦٠ (٣) سبأ : ٣٩

لقد جهل عرب الجاهلية هذا الأمر ، فاقترفوا أبشع جريمة : قتلوا أولادهم بأيديهم شر قتلة ، بأخبث دافع : من أجل إملاق (فقر) واقع ، أو خشية إملاق متوقع ، أى مخافة أن يطعموا معهم ، ويزاحموهم فى رزقهم ، غافلين عن أن رزقهم يأتى معهم .

يقول تعالى فى سياق ما حرَّم على عباده : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾(١) ، وفى سورة أُخرى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٢) .

وقد أبطل الإسلام هذه الجريمة الشنعاء ، وعلَّم الناس أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأن خزائنه ملأى لا تنفد : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣) .

* *

● جريمة الجاهلية المعاصرة :

ولكن الجاهلية المعاصرة - جاهلية القرن العشرين - طفقت تحيى بعض ما مات من الجاهلية القديمة ، وتُخوِّف الناس من أمر الرزق ، وتحرضهم على الإجهاض ، إجهاض أطفالهم مخافة أن يطعموا معهم كما رأينا ذلك فى أوراق مؤتمر السكان العالمى الذى انعقد فى القاهرة (سبتمبر ١٩٩٤) .

أما المسلمون الأوائل ، فقد أنسوا إلى وعد الله تعالى ، وأيقنوا بصدقه ، واطمأنوا إلى ضمانه ، فلم يبخلوا ببذل الأموال ، ولم يضنوا ببذل الأرواح ، فى سبيل الله .

عند تجهيز جيش العُسْرة فى غزوة تبوك ، تسابق الصحابة فى الإنفاق والبذل ، فجاء عمر بنصف ماله ، وجاء أبو بكر بماله كله ، وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « وماذا أبقيتَ لأهلك وعيالك » ؟ قال : أبقيتُ لهم الله ورسوله !

قيل لبعض المجاهدين فى عصور الفتح : مَن يكفى أولادك من بعدك ؟ قال : علينا أن نجاهد فى سبيله كما أمرنا . وعليه أن يرزقنا كما وعدنا !

---

(١) الأنعام : ١٥١ (٢) الإسراء : ٣١ (٣) المنافقون : ٧

وقيل لزوجة مجاهد من السَّلَف : من أين تعيشين أنت وأولادك بعد ذهاب زوجك ؟

فقالت بكل ثقة : زوجى منذ تزوجته وعرفته ، عرفته أكّالاً ، وما عرفته رزّاقاً ، فلئن ذهب الأكّال لقد بقى الرزّاق !

* *

• التوكل فى أُمور الدنيا الأخرى :

ورغم أهمية أمر الرزق لدى أكثر الناس ، فهو ليس كل ما يطلب الناس من أمر الدنيا . فهناك مَن يطلب الزوجة ، وهى من أهم ما يُطلب من دنيا الناس . وفى الحديث الصحيح : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » (١) .

وهناك مَن يطلب الذُرِّية التى تكون له قرةَ عَيْن ، وترثه من بعده ، وهو مطلب مشروع دعا به الأنبياء والصالحون .

قال إبراهيم : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

وقال زكريا : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣) .

وهناك مَن يطلب العافية ، وهى أهم ما يطلب الأفراد لأنفسهم .

وفى الحديث : « سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يُعْطَ بعد اليقين خيراً من العافية » (٤) .

وفى دعاء القنوت : « وعافنى فيمن عافيت » (٥) .

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن ابن عمر ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٣٤١٣) . (٢) الصافات : ١٠٠ (٣) آل عمران : ٣٨

(٤) رواه الترمذى وحسَّنه (٤٦٤) ، كما رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن الحسن بن على رضى الله عنهما .

(٥) رواه أحمد والترمذى عن أبى بكرة (صحيح الجامع الصغير : ٣٦٣٢) .

وهناك مَن يطلب الانتصار على عدو ظلمه ، فهو يريد أن يشفى غلته بأخذ الله له . وهذا لا حرج فيه ، فهو من طبائع البشر ، وقد رخص الله للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول فى حق ظالمه ، رعاية لحاله : ﴿ لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلا مَن ظُلِمَ ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ (١) .

وهذه كلها مطالب دنيوية مشروعة ، ومن متعلقات التوكل على الله تعالى .

فالمؤمن يتوكل على ربه أن يرزقه الزوجة الصالحة ، والأولاد الصالحين ، كما دعا بذلك عباد الرحمن : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ (٢) .

ويتوكل عليه حتى يمنحه العافية ، وينصره على ظالمه .

* *

● التوكل فى أمر الدين :

ولكن هناك ما هو أعظم من هذا ، وهو مَن يتوكل على الله تعالى ، حتى يأخذ بيده ، ويعينه على سلوك الصراط المستقيم ، ويثبته عليه ، ويجعله من ﴿الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾ (٣) ، ويمنع عنه المشوشات وقواطع الطريق ، من النفس والشيطان ، والدنيا والناس . كما قال العبد الصالح :

إنى بُليـــتُ بأربـع يرمينني ... بالنبل عن قوس لـه توتـير

إبليس والدنيا ونفسى والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

وهناك ما هو أعلى من هذه المرتبة فى متعلقات التوكل ، وهى : مرتبة مَن يتوكل على الله تعالى فى إعلاء كلمته ، ونُصْرة دعوته ، وتأييد شريعته ، وتبليغ رسالته ، وجهاد أعدائه ، والتمكين لدينه فى الأرض ، حتى يحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويقوم العدل ، وينقشع الظلم ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وبذلك لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله .

* *

---

(١) النساء : ١٤٨ (٢) الفرقان : ٧٤

(٣) فصلت : ٣٠ ، والأحقاف : ١٣

● توكل الأنبياء وورثتهم فى إقامة الدين :

وهذا هو توكل الرسل والأنبياء ، وهو الذى حكاه عنهم القرآن ، حيث تحداهم أقوامهم متعنتين ، فواجهوهم بقوة التوكل متثبتين ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١) .

وهذا هو موقف ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة فى كل عصر ، ولا سيما فى عصرنا الذى احتشدت فيه القوى المعادية للإسلام ، من يهودية غادرة ، وصليبية ماكرة ، وشيوعية كافرة ، ووثنية فاجرة . وصدق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٢) .

ولكن حملة رسالات الله لن يتراجعوا عن دعوتهم ، ولن ييئسوا من روح الله ، وسيمضون فى طريقهم متوكلين على ربهم ، موقنين أن الله ولى المؤمنين والمدافع عنهم ، إن تخلى عنهم المدافعون ، وتآمر عليهم المتآمرون ، ومكر بهم الماكرون ، فإن الله أسرع مكراً ، وأقوى كيداً : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ (٤) .

ما عليهم إلا أن يستمسكوا بشريعة الله ولا يبالوا بأعدائها ، وأن يوقنوا بقوله تعالى لرسوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) .

إن الذى نصر أصحاب طالوت وهم قِلَّة ، ونصر المسلمين فى بدر وهم

---

(١) إبراهيم : ١٢ (٢) الأنفال : ٧٣ (٣) الأنفال : ٣٠
(٤) الطارق : ١٥ - ١٧ (٥) الجاثية : ١٨ - ١٩

أذلة ، ونصر المسلمين يوم الخندق وهم محاصَرون ، قادر على أن ينصرهم اليوم وهم من كل صوب يُهاجَمون ، وفى كل أرض يُضطَهدون .

إن الملائكة التى نزلت فى بدر والأحزاب وحُنَين ، يمكن أن تنزل اليوم على المؤمنين المحاصَرين المغلوبين : فى فلسطين ، وفى البوسنة والهرسك ، وفى جامو وكشمير ، وفى الفلبين ، وفى أريتريا والحبشة ، وفى بلاد إسلامية كثيرة يُحارَب فيها الإسلام جهرة وخفية ، تحت أسماء وعناوين شتَّى : الرجعية ، أو الأُصولية ، أو التطرف ، أو الإرهاب ، حتى غدا التمسك بآداب الإسلام كالحجاب للمرأة ، واللِّحية للرجل ، والحرص على شعائر الإسلام ، كصلاة الفجر فى المسجد ، والدعوة إلى تحكيم شريعة الله فى دنيا الناس ، والتنادى بتوحيد كلمة الأمة تحت راية الخلافة ، وإعادة « دار الإسلام » من جديد . . كل ذلك من دلائل التطرف ، ومداخل العنف والإرهاب . ولا حَوْل ولا قُوَّة إلا بالله .

أمام هذه المحن الضارية ، والهجمات المتتالية ، والضربات الباغية ، ليس أمام دعاة الإسلام إلا التوكل على الله ، يقفون على بابه ، ويلوذون بجنابه ، ويعتصمون بحبله : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

ليس أمامهم إلا أن يقولوا ما قال الإمام حسن البنا حين بغى عليه باغون ، وافترى عليه مفترون : « سنستعدى على الباغين سهام القَدَر ، ودعاء السَحَر ، وكل أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه » .

ليس أمام المستضعفين والمقهورين إذا أُغلقت فى وجوههم الأبواب ، إلا باب واحد لا يُغلق أبداً ، هو باب الله الكريم ، يقرعونه بدعائهم وابتهالهم وتضرعهم ، إلى مَن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وينصر المظلوم المغلوب ، يرفع دعوته فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول جَلَّ جلاله : « لأنصرنَّك ولو بعد حين » .

قد يضحك الطغاة من دعواتهم ويسخرون ، وقد يهزؤون باستغاثتهم

---

(١) آل عمران : ١٠١

ويتغامزون . وقد سمعنا أحدهم يقول للمعتقلين مستكبراً مغروراً : هاتوا ربكم وأنا أحطه معكم في زنزانة !! ثم كان مصيره أن صدمته سيارة فقطعته إرْباً إرْباً .

لقد عوّدنا القَدَر الأعلى أن يسخر من هؤلاء الساخرين ، فيجعل نهايتهم أسوأ النهايات ، ويختم روايتهم بأقبح المشاهد ، ولسان الحال يقول لكل طاغية منهم :

أتهـزأ بالدعاء وتـزدريه ؟ وما يدريك ما صنع الدعاء ؟
سهام الليل لا تخطى، ولكن لها أمد ، وللأمد انقضـاء !
فيمسكها - إذا ما شاء - ربى ويرسلها إذا نفذ القضـاء !

* *

● سعة منزلة التوكل :

يقول ابن القيم : « ومنزلة التوكل : أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازلين ، لسعة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار . . .

فأهل السموات والأرض . . في مقام التوكل ، وإن تباين متعلق توكلهم » .

ومن طريف ما ذكره : « أن هناك مَن يتوكل على الله في حصول الإثم والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غلباً إلا باستعانتهم بالله ، وتوكلهم عليه . بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات . ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك ، معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم . . . !

وأفضل التوكل توكل الأنبياء في إقامة دين الله ، ورفع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم .

ثم الناس بعد في توكلهم على حسب هممهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول الملك ، ومن متوكل في حصول رغيف »[1] .

* * *

---

(١) انظر المدارج : ٢/ ١١٣ ، ١١٤